

## الحج ركن من أركان الاسلام

والدعامة الكبرى في صرح الاجتماع

للاستاذ مصطفى الصاوي

لعل من أوضح الدلائل على أن الاسلام ، عنى أول ما عنى بوضع نظام الحياة البشرية على حال ، يمكنها من قطع مراحل الحياة في طمأنينة واستقرار ، أن جعل أركانها الأولى خمسة ومن بينها الحج :

ولعل من أكبر البراهين على أنه عنى بالناحية الاجتماعية عناية تامة ذلك التشريع الحكيم الذي كانت إحدى دعائمه فريضة الحج . ثم لعل من أقوى الدلائل على أنه تشريع حكيم ، وسياسة رشيدة ذلك الترتيب الذي نظمت على غراره مناسك الحج ومشاعره . فبني أركانه وفرائضه ومسئولياته من النظم الارشادية للجماعة الانسانية ما لو اتبعتها لسعدت في الحياتين ولسار ركها في ببدء الحياة الوعرة المسالك آمنة مطمئنا متهد الخطي موفور الأمن والسلام .

ولعل من أعظم الحجج على أنه التنزيل الرباني والوحي السماوي ان جعل كل اتجاهاته وأهدافه الى الروح وتهذيبها أولا ثم الى تنظيم الحياة البشرية ثانيا . وذلك خير ما يدعو اليه المصلح الاجتماعي . فاذا ما هدبت الروح استعدت للتوجيه وقبول الإرشاد . فلا عجب اذا كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من ذلك اللون وهذا الطراز ، ولا غرابة اذا كانت ثمرة ناجحة قد وفقت التوفيق كله . وهل هناك طيب للاجتماع وطب للاجتماع خير مما أنزله خالق الاجتماع على طيب الاجتماع .

يحدثني وأنا أتحدث عن فريضة الحج أن آتى على المسامة موجزة من حياة ذلك الدين تبين لنا الغرض الذي كان يهدف اليه ، والغاية التي يرمى اليها ، والوسائل التي اتخذها ذلك المصلح الاجتماعي الأعظم حتى بلغ رسالة ربه وجمع شوارد النفوس وجوامع الأفتدة على مبدأ واحد . وحتى يكون منهم أمة وحقها القرآن بأنها ( خير أمة أخرجت للناس ) .

جاء ذلك النبي بذلك الدين على فترة من الرسل قد استحكمت فيها الخلاف بين البشرية الجالحة . فاستحالت من نظام ديني سماوي وضع أسسه الأنبياء المرسلون السابقون الى فوضى شاملة وانحلال خافي وتغلب للذاتية على ما يجب نحو الجماعة فاستشرت الأثرة ولستأسد الشر . حيث كانت حروب مشتعلة ، ونهب للاموال ، وسفك للدماء ، وذلك الى جانب مبدأ الاستباحة الغشوم الذي يفرض القوة على الضعف ، وفي ظلال ذلك المبدأ انتهكت الحرمات فحرمت

المرأة من حفظها من الحياة وسلب اليتيم ماله وقتل الولد خشية الإملاق، ووثدت البنت خوف العار، الى غير ذلك من تلك الأمور التي هي كفيلاء أنت تتحقق دولا وتبيد ممالك وتذر الأمم حديث الأمس وأقصوة الناريح .

في ذلك الجلو الماتهب وهذا الوسط المذكور المكفهر ظهر ذلك المصلح الاجتماعي الأول محمد بن عبد الله فاتجه الى إصلاح المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما زال بالناس يبلغهم رسالة ربه ، وينشر اواء السلامة والسلام بينهم ، تدرجيا باخلاص وحرص على أن يحروا حياة السعادة ، ويكونوا مثالا عليا وهم يقابلون ذلك بالإيذاء والصد والتحدى حتى رتب حياتهم بعد أن رقق منهم المشاعر وأرهف الأحاسيس وعلمهم الصديق والوفاء والأمانة واحتمل الأذى والصبر على المكارة، فكون منهم دولة فتية قوية ذات ملك عضود وذكر شروء تجتمع على كلمة التوحيد وتستقبل قبلة واحدة وتصدر في شؤونها الدينية والأخروية عن الدين وترد في كل رغائبها موارد هذا الدين فحسن حالم وعزوا بعد ذل وأيسروا بعد الفاقة المستحكمة وانصرفوا عن حروب تأكل الأخضر واليابس الى سلم مهد لهم السعي في الحياة لتوطيد السكينة وإقرار الهناء والسلام، واطمأنوا الى ذلك الدستور الجديد الذي سوى بين الناس جميعا حيث جعل من فقراته (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) و (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) وأصبح الناس في دين الله إخوانا ، نادمين على ما فرطوا في جاهليتهم فرحين بما أوتوا من هداية وخير، مؤملين غفران ما مضى، طامعين في المثوبة على ما يأتي :

كانت تشريعات هذا الدين كلها تهدف الى تكوين الأفراد أولا، ثم الى تنظيم الجماعات ثانيا ، ثم الى توطيد الدولة ثالثا ، وتلك خير السبل للإصلاح الاجتماعي المراد .  
وإذا كنا بصدد الحديث عن الحج وبيان أنه ركن من أركان الدين أولا، وأنه الدعامة الكبرى في صرح الاجتماع ثانيا ، فأخلق بنا أن نتحدث عنه من ناحيتين :

الناحية الأولى - الحديث عن الحج باعتباره صلة بين العبد وربيه . وقربة يتقرب بها اليه .  
الناحية الثانية - الحديث عن الحج باعتباره دعامة قوية في صرح الاجتماع، ووسيلة من وسائل إصلاح المجتمع البشري العام، وإذا كان العبد مسئولا عن إحسان الصلة بربه، وكان في شديد الحاجة لأن يتعد عما يغضبه ، ويتقرب من مرضاته ، كان لابد لنا من النظر في الحج ، وبيان الخطوات المقربة الى الله ، المباعدة عن النار والعذاب .

فأخطوات التي يحتويها الحج هي ما يأتي :

(أولا) أن التصديق به ركن من أركان الدين ، وتحقيق ذلك بالامتثال المصمم المحقق بالإحرام به خطوة أولى في طريق النجاة وسبيل الى الجنة .

(ثانيا) ذلك السفر الطويل الشاق، وما يقضيه من إنفاق للأموال، وهجران للأوطان، الخطوة الثانية الى الجنة .

(ثانياً) ذلك الطواف حول مبنى من المباني بعقيدة ثابتة يعتلى قلب الطائف إجلالا  
لرب البيت وعيناه بالدموع هتانة بالأسف والاشفاق من الله ، الخطوة الثالثة .

(رابعا) قهر النفس والزامها ترك عادة متبعة بالتجرد عن المحيط والمحيط وما كان المحرم  
ليتركها أولا أنها أساس قبول الحج وصحته ، خطوة رابعة فيها يتساوى السيد والمسود والخدم  
والمخدوم .

(خامسا) قهر النفس بالهرولة في السعي بين جبلي الصفا والمروة ، وفي ذلك من نسيان الوقار  
وترك الذاتية الشخصية والتنازل عن كثير من عزرة النفس بقلب راض راخض ، خطوة خامسة .  
(سادسا) ذلك الوقوف بعرفات ذلك الجبل المسوط المسطح وفيه من الشقاء والألم  
بتحديد الزمن وغيره ، خطوة سادسة .

(سابعا) تلك الحصى والجمرات يجمعها ويقذف بها في مكان مخصوص كواجب من  
واجبات الحج سابع الخطوات . خطوات كلها أيها السادة فيها من المشقات والأتعاب الشيء  
الكثير ، وهي موصلات الى رضاء الله تعالى وغفرانه قد جعل جزاءها الجنة وتكفير الذنوب  
فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ( الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ) .

هذه هي الناحية العبادية في الحج وكفى بها وسيلة الى تهذيب النفس وإعداد الشخص  
للكمال وتبئته لمصير ينتظره حتما .

### أما من الناحية الاجتماعية :

فإن التزام الانسان أمر الحج واعترامه تأديته مع ما فيه من المشقات لا تكون إلا عن  
إرادة قوية صادرة عن عقيدة ثابتة وما أحوج الاجتماع الى وجودها في نفوس الأفراد وإن  
مجتمعا كانت أفرادها أولى إرادة قوية صادرة عن عقيدة صادقة فهو خير اجتماع يبنى الدولة  
ويكون الأمة على الوضع الصحيح .

وإن الاحرام بالحج وتأدية أهماله بانتظام والسفر على برنامج محدد تكوين لذاتية الفرد  
وتصحيح لفكرته وعمله وذلك جل ما يهيم المتسلح الاجتماعي .

وإن التجرد من المحيط والمحيط لتعويد للنفس أن تتجرد من عوائدها وأن تستعد لقبول  
الاصلاح مهما كلفها ذلك الاصلاح من ترك العادات واللازمات . وبيان للناس أن المساواة  
أمر لا بد منه لسير الركب البشري في سبيل حياته ، فالك ترى جميع الحجاج قد تساوا في الملابس  
والعمل لا يفرق فارق بين سيد ومسود ، ولا بين عظيم وحقير ، وغنى وفقير ، وإن في الطواف  
والسعي لأسراراً بديعة . فالطواف يرمز الى الآداب العامة حيث يعلم الحامله فلا يدخل على  
غيره دون أن يستأذنه ويسلم عليه كما أن الطواف استئذان رب البيت وتسليم عليه وهي تحية  
والتحايا على اختلاف الحيا فما أجمل هذا النظام .

إنا لو نظرنا إلى الحكمة المتجلية في الطواف لارتاحت نفوسنا إلى ذلك التشريع فأنها ترتفع بالأرواح إلى القدسية التي يجب أن ترتفع إليها والتي لا بد لكامل النفوس البشرية منها. وإن في امتثال الناس أفرادهم وجماعاتهم الأمر البعيد السر عن ادراك العقل رمز للطاعة الصنخيجة والنظام الدقيق وإشارة للناس أن سيروا كإشارة أولى الأمر منكم في نظام وإيمان (وهل تبنى الدول ، وتدعم أممك إلا على النظام والطاعة) ؟

أيها الناس ، إن في تشريعات الحج تقريرا لمبدأ الحرية والإخاء والمساواة قبل أن يخلق في فرنسا مبدأ الحرية والإخاء والمساواة . وأن في تشريعات الحج ومشاعره تقرير للمبدأ الإذعان والطاعة والاحلاص والذنام قبل أن توجد الأمم التي دسترت نفسها على مبدأ الإذعان والطاعة والنظام ، وإن في تشريعات الحج توجيه النفس إلى نسيان الذات وذكران الشخصية والاندماج في الجماعة والعمل لها قبل أن يعرف الناس شيئا يسمى الجندى المجهول فلذلك ساد هذا الدين العالم ، واستولى على المشرقين والمغربيين لكن عن طريق العقيدة والافتناع ، لا من سبيل القوة والحسام .

إنا لو نظرنا أيها السادة إلى تلك الفريضة بعين باصرة لتجلت لنا العبر وواجهتنا الآيات البيئات على أن المشرع كان يهدف أول ما يهدف إلى تصحيح الاجتماع وتنظيم الحياة على وضع صحيح وإقرار سليم ، فقد ربط بين الناس بوشائج الوداد وجعلهم متضامنين متعاونين إذ حدّد أحكام الحج تحديدا من ضل عنه كان جزاؤه التزول طواعة واختيارا عن جزء من ماله لفقراء الحرم ومساكينه : أرأيتم تشريعا يعاقب المسيء من بحى الإنسان بالترفيه عن أخيه الإنسان مثل هذا التشريع الحازم الحكيم : تشريع قدر ربط الأواصر وجمع الناس على مائة السلام ووطد العلاقات فنعم هذا التشريع الحكيم .

فالإحرام بالحج معناه الشروع في عمل جديد يقتضى المحرم عناية جديدة وتغيير أسلوب الحياة الأول ، فلذا رمز إلى ذلك بالتجرد عن ألباس العادات وهى اللباس الذى هو زى الإنسان ومظهر كرامته ومحل نغره وارتداء لباس جديد يناسب العمل الجديد . وإذا كان هذا واجبا على كل محرم فقد تحقق معنى المساواة ومبدأ ترك الفوارق بين الناس أجمعين . ثم هو رمز من ناحية أخرى إلى أن الإنسان يجب عليه إذا شرع في أمر ذى بال أن يترك غيره من الأعمال الأخرى ليتوافر عليه تماما . وفي ذلك أمر من طرف خفى بوجود اتيان الأعمال التي تسند إلى الإنسان ( ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ) .

والطواف بالبيت العتيق رمز ظاهر إلى أن تكوين الدول والابقاء عليها إنما يكونان بتحديد الغرض والأهداف إليه كما تحدد البيت الحرام غرضا للطواف والقبلة يهدف إليه المسلمون جميعا ، وهذا معناه أنه يجب أن يكون للمسلمين جهة ثابتة يرجعون إليها إذا مادهمتهم الأحداث ، وإن في السعى بين التفتنا والمروة أمر بالكد والكفاح في طلب ازرق

والجهاد ونهباعن التواكل والاستسلام . وهذا معناه أن الحياة بلا عمل موت . وأن التفاعد عن الأعمال مهلكة أى مهلكة : وإس أمر جمع الحصى ورميها على الوضع المعروف بأقل فى الأمر بالجد والعمل من السعى بين الصفى والمروة، وإن فى الوقوف بعرفة لإشارة صريحة أو أمرا بأن من واجب المسلمين إذا أردوا الاحتفاظ بدولتهم واستبقاء مكانهم مرحوب الجانب موفور الكرامة أن يكون أمرهم شورى بينهم وأن يعرضوا ما جد من الأمور على مجموعهم للبحث والتحصيص والحكم لتوافر المواهب على إحسان التوجيه، فالوقوف بعرفة بمثابة مؤتمر عام يجمع أنواع المسلمين على اختلافهم ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معدودات ولينشاوروا فى شؤونهم الدينية والدنيوية وفى هذا المؤتمر فائدة كبرى .

وإذا كانت الدول الراقية تعمل على عقد المؤتمرات الاقتصادية والفكرية والسياسية والصحية والدينية فأحر بالمسلمين ألا يتخلفوا عن عرفات ذلك المؤتمر العظيم الذى فيه نجاحهم وفلاحهم فى هذه النواحي جميعا .

وإن فى طواف الوداع بعد الانتهاء من مناسك الحج لأ كبر برهان على أن الدين الإسلامى لم يحمل أمر المجاملة والآداب العامة فقد شرع طواف الوداع استئذانا من رب البيت بالرحيل كما شرع طواف القدوم تحية لرب البيت واستئذانا بالدخول، وفى هذا إشارة الى أن القادم تلمزه تحية رب البيت واستئذانه عند القدوم وعند الرحيل .

أرأيتم أيها السادة تشريعا أفضل من هذا التشريع الذى عنى بكل شىء حتى بالمجاملات بين الناس والناس ، تشريع يربط العبادة بالاجتماع والاجتماع بالعبادة ربطا وثيقا .

هذه هى أركان الحج وتلك مشاعره ، وقد ذكرنا سر التشريع فيها وما تفيده البشرية منها فى الآخرة من جنه ورضوان ، وفى الدنيا من نظام وتهذيب للاجتماع ، وهى بهذا الوضع عبادة وقربة وصله بين العبد وربّه أولا ، ثم هى بعد نظام اجتماعى خطير خلىق بأن يكون أمة ، فيتبنى دولة تستطيع أن تؤدى رسالة من خير الرسالات فى إسعاد البشرية وهناءتها تلك التى أهدف إليها القرآن فى كثير من آياته .

تلك الرسالة مداها تعويد الفرد قوة الإرادة وإتقان العمل وإحسان الأهداف وتهيئته لملاقة الأحداث وتصرفات القدر المستورة المنغية وإرشاده الى آداب الاجتماع ونظام الاجتماع ومن مزايها تكوين الجماعات من لبنات الأفراد الذين تقدم ذكرهم وتهيئة الأفراد وتكوين الجماعات يستقيم أمر الشعوب وتبنى الدول وتسعد البشرية فى حياتها وتصل الى الفاية المرجوة فى سلام .

هذا هو تشريع الإسلام وتلك مزاياه وفضائله وهذى أسرار الحج وفوائده .

مصطفى الصاوى

مدرس بالمعهد الدينية ، وعضو رابطة الإصلاح الاجتماعى